

الحالة الفكرية والثقافية من القرن 6هـ إلى القرن 8هـ:

أ بوهني مصطفى
جامعة قسنطينة

الملخص:

تلمسان من مدن الشمال الإفريقي الغربي، ذات موقع ممتاز لكونها ملتقى الطرق الرئيسية الرابطة بين الشرق والغرب.

وأكثر الأقاليم اعتدالا في المناخ، وأكثرها وفرة للمياه والنبات والحيوان. إن موقعها المتميز جعلها تفتح أبوابها لتجارة أوروبا، وتجارة المغرب والشرق، وممرا للقوافل التجارية، وتعد من أجمل المدن وأحسنها،

فقد وهبها الله طبيعة وافرة الجمال. أرضها اصطفتها الطبيعة لتبرز جمالها لمن يهواها، ويقوم في حضنها، تنعم بالمياه النيرة والهواء الصحيح. وتعد المدينة من بين أعرق مدن التاريخ والحضارة في المغرب العربي تزخر بأثار كثيرة خلفتها حضارات الأمم والشعوب التي تعاقبت على المنطقة وظلت شاهدة على عمق ماضيها وعظم شأنها، ولهذا قمت باختيار هذا المقال الذي أعالج فيه الحالة الفكرية والثقافية لتلمسان في هذه الفترة.

الكلمات المفتاحية: تلمسان، الموقع، الطبيعة، الفكر، العمران، الحضارة، التاريخ، الأدب.

Summary:

Tlemcen city is situated in the north - west of Africa. It is a crossroad that links the East with the west. More than that, it is a region abundant with water, plants and animals (fona and flore).

The location of Tlemcen opened offers her a trading doors with Europe and commercial caravanes from East and west. It is one of the most beautiful countries, blessed with a god - given natural beauty. The inhabitants live in Tlemcen lap enjoy free air and pur water. In fast, It is among the oldest historical

civilization in the Maghreb because of its rich culture witch comes from those who once lived here. Finally one could say that Tlemcen's deep past remained a witness to those who will come. That is why you choose this article in which the intellectual and cultural situation to deal with in this period of Tlemcen.

توطئة:

عرفت الحركة الفكرية بتلمسان نشاطا هاما في عهد المرابطين، فأصبحت مقرا لولايتهم في المغرب الأوسط، إذ شيّدوا القصر وجعلوه مقر للتواصي، وبنو المسجد الأعظم الكبير (530هـ - 1136م).

كما نل عليه الكتابة الموجودة على قاعدة القبة الموضوعة أمام المحراب، فهي أول قبة ذات تعاريف ظهرت في المغرب العربي، ومنبره أقدم المنابر في المغرب الإسلامي، كما نل عليه الكتابة التي كتب في أعلى إطار باب به "باسم الله الرحمن الرحيم أتم هذا المنبر في أول شهر رجب الذي من سنة سبعين وأربعمائة ل 14 يونيو 1097م، وبناء الجامع النورمي الذي يمتاز ببساطته وكتابته الكوفية التي تعد من أجمل الكتابات التي يرجع تاريخها إلى العصر الوسيط¹.

موضوع المقال:

ولقد انتشرت العلوم المعرفية في تلمسان المرابطية بفضل اتساعها، واستبحار عمرائها، وكثر الاهتمام بالعلوم الدينية، وخصوصا الفقه لحاجة الناس إلى معرفة مختلف المسائل الدينية من عبادات ومعاملات ولحاجة الحكام إلى إصدار الأحكام الشرعية. وأصبحت مدينة تلمسان تستقطب العلماء، ورجال الثقافة من كل حذب وصوب، وأضحى مسجد الجديد مؤسسة ثقافية.

وأدى توافد الكثير من رجال العلم إلى تكوين أجيال جديدة من العلماء من أمثال أبي القاسم المكنى بابي الحسن والمعروف بابن الجنون الذي كان فقيها متحققا بأصوله، عالما حافظا سيد الأجواء له تأليف عديدة منها: "المقتضب الأشقي في اختصار المستصفي"².

وأبو مدين الغوث الملقب حاليا بسيدي بومدين والذي توفي بمدينة تلمسان سنة 594هـ، وهو من مواليد إشبيلية بالأندلس سنة 520هـ، تتلمذ على يد أبي حرزهم، وابن حسن بن غالب وقد استدعاه الأمير يعقوب المنصور إلى المغرب بعد عودته من بجاية أين باشر تعليمه ولا زال ضريحه مزار للسكان ودفن برابطة العباد ومن أشهر أشعاره:

بكت السحابُ فأضحكتُ بُكائِها

زهرَ الربايرِ وفاصتُ الأثْهَارُ

وقد أقبلتُ شمسُ النَّهارِ بِحُلَّةِ

خَضْرَاءِ، وَفِي إِسْرَارِهَا أَسْرَارُ

في عبد المؤمن ويوسف ويعقوب المنصور بمصر والحسن بن علي بن عمر البطلبيومي سنة 585هـ.

كما اعتنى الموحدون بالحديث الشريف عناية فائقة فكان إمامهم المهدي بن تومرت، محدثاً حافظاً غير انه استند إلى مهادويته إلى طائفة من الأحاديث، وبرغم من استنادهم إلى المذهب بنبي تومرت إلا أنهم اتبعوا مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه صاحب الموطأ.

وقد اهتم عبد المؤمن بالعلم والعلماء من خلال إشرافه على جمع آثار المهدية العلمية في التوحيد أو المهادوية أو الفقه ليكون في كتاب واحد سماه كتاب اعز ما يطلب وأفضل ما يكسب...¹⁰، كما أمر برد الناس إلى كتب الحديث، وفي مقدمتها الموطأ وحرص على

المساجد وبنائها في جميع ممالكه فكتب بذلك إلى جميع ممالكه فكتب بذلك إلى جميع الطلبة، واتبعه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، ومن الوظائف الفقهية التي ازدهرت في عهد عبد المؤمن وخلفائه وظيفة التوفيق.

وقد اهتم الموحدون فنشطت مختلف المعارف والعلوم والآداب المختلفة، فقد برز الاهتمام بالعلوم الاجتماعية من خلال ظهور مجموعة من المؤرخين ومن أشهرهم:

- **البيدق أبو بكر الصنهاجي:** مؤرخ قد يكون من صنهاجة المغرب الأوسط رافق ابن تومرت أثناء عودته من المشرق وألف كتاب وصف فيه رحلته، وضمنته بعض أخبار المهدي في تومرت وعبد المؤمن، توفي سنة 550هـ.

- **أبو علي بن الأشيري حسن بن عبد الله بن حسن:** مؤرخ وأديب ولد ونشأ بتلمسان في عهد يوسف بن عبد المؤمن له مختصر في التاريخ سماه "نظم اللائي فتوح الأمر العالي" توفي 596 هـ¹¹.

وفيما يخص العلوم الطبيعية فإنها كانت لا تزال في مرحلة الانطلاق في المغرب الأوسط ومن أشهر علماء الطبيعة:

- **التيفاشي:** شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف طبيب أديب وقاضي برع في العلوم الطبية، وخاصة في الأحجار الكريمة في الأديب وألف كتاب "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" وكتاب الشفا في الطب عن المصطفى¹² وغير ذلك من الكتب.

وبالتالي تلمسان قبلة للعارفين والدارسين منذ القرن الرابع تستقبل العلماء، وتنتج بخطى حيثة نحو النمو الثقافي، وقد عبر عن ذلك البكري في وصف لتلمسان القديمة أجادير بقوله: " ولم تزل تلمسان دار للعلماء والمحدثين وحمة الرأي على مذهب إمام مالك بن أنس رحمه الله.¹³ فتوافد عليها العديد من العلماء ومنهم:

وأقرب الربيع بخيله وجنوده
فتمتعت في حُسْنِهِ الأبصار

وَالْوَرْدُ نَادَى الْوُرُودَ إِلَى الْجَنَى

فَتَسَابَقَ الْأَطْيَارُ وَالْأَشْجَارُ 3

كما وفد إليها أبو جعفر بن عزلون الأندلسي من أهل طليطلة روى عن أبي الوليد الباجي وهو أكبر كبار الصحابة من أهل الحفظ والذكاء استقر بتلمسان واخذ عن طلبة العلم إلى وفاته 542 هـ⁴.

والشيخ أبو قاسم الرعيتي الشاطبي الأندلسي المتوفى بالقاهرة 590هـ ثم أحمد بن عبد الله اللخيمي القاسمي المتوفى بمصر والحسن بن عمر البطلبيومي المتوفى 585 هـ.

وعرفت تلمسان نبوغ مشايخ عدة في ميدان التصوف كالشيخ أبو عمر عثمان بن علي الحسن التلمساني المشهور بالصلاح وتلاوة القرآن توفي 542هـ إضافة إلى العالم الصوفي أبو القاسم البجائي الذي يعرف بعبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن، ألف كتابا في التصوف سماه قطب العارفين ومقامات للأبرار والأصفياء والصديقين توفي سنة 577 هـ⁵.

وعقب استيلاء عبد المؤمن بن علي على تلمسان (534هـ/1139م) تزايد التوسع العمراني بها موازاة مع تزايد النشاط التجاري من جهة، وانتشار التعريب والثقافة العربية الإسلامية من جهة أخرى، واستفادت تلمسان من جديد بعناية الموحديين لها حيث ابقوا عليها كمبر لولايتهم ومركز إشعاع وأعطاهما عبد المؤمن الأولوية كمرکز ثقافي⁶.

ثم جدد عبد المؤمن مسجد تلمسان الجامع⁷، وبنا لنفسه بها قصر المشور سنة 540هـ وعقد بها مجالس العلم ونشر التعليم الإجباري فاستعمل أماكن التعليم التي عرفت قبل عصرهم من كتاتيب ومساجد ورباطات وزوايا وأسس بها دار التعليم وإدارة الإقليم.

والكتاتيب هي أماكن المرحلة الأولى التي كان يتعلم فيها الصبية المسلمون مبادئ القرآن الكريم والكتابة، ويأخذون بعد ذلك في حفظ القرآن الكريم، ثم يتعلمون بين جدرانها أولويات علوم الدين واللغة التي تهيئهم لتلقي العلوم بالمساجد. وعمل عبد المؤمن على نشر مبادئ الموحديين، فعمم التعليم بالكتاتيب والرباطات التي كانت تعبر من المعاهد العلمية الهامة⁸.

وقد عمل الموحدون على تنشيط الحركة الثقافية بتلمسان من خلال اهتمامهم بمختلف العلوم وخاصة الدينية والتي كان علم القرآن في مقدمتها، إذ يعتبر المغرب الموحد من أشد الأقطار المسلمين اهتماما بهذا العلم، فاتخذوا كتاب الله إمام لهم.

ومما يدل على ذلك كون الخليفة يوسف بن عبد الله المؤمن الذي حكم بين (558هـ-1163م)، قد درس ونال حظا وافرا منه، " فكان أحسن نطقا بقرآن الكريم"⁹، إلى جانب علماء القراءة الذين اشتهروا

بتلمسان حيث عمل على مجالسة الصلحاء والإكثار من زيارتهم، وعقد المجالس العلمية في قصره إلى جانب اهتمامه بالمذهب المالكي²⁰ رغب رجال العلم في القوم إلى عاصمته إذ تمكن من استقطاب أبي بكر محمد بن عبد الله بن الخطاب المرسي الأندلسي 686 هـ - 1287م، فأحسن نزله ومثواه وقربه من بساط العز، وجعله صاحب القلم الأعلى²¹.

وقد سار ملوك بني زيان على درب يغمراسن بحيث عملوا على تثبيت الأسس الثقافية والحضارية، إذ شجع عثمان بن يغمراسن (668-703 هـ / 1282-1303م) العلوم العقلية والنقلية بنوعيتها، واحتفظ بعلماء وفقهاء والأدباء ممن كانوا في عهد أبيه، وأضاف مجموعة من الأدباء والشعراء من بينهم الشاعر الصوفي أبا عبد الله محمد بن خميس (708-1098م) وقلده خطة الكتابة (671 هـ / 1272م)²².

أما أبو حمو موسى (708 هـ / 1308م - 718 / 1318م)، فقد جعل من تلمسان قبلة للعلم والعلماء وجلب الفقيهين الكبيرين ابنا الإمام أبي زيد وأبي موسى، وبنى لهما مدرسة في المغرب الأوسط سميت مدرسة أولاد الإمام²³.

كما أسس أبو تاشفين الأول (718-737 هـ / 1318م-1337م) مدرسة بقرب جامع الأعظم زودها بالكتب سميت باسمه فيما بعد واشتهر في عهده العديد من العلماء أمثال الشيخ الفقيه أبا موسى عمران المشدادي البجائي (745 هـ - 1245م). واشتهر في عهده أيضا أسرة بني الملاح، وقاضي الجماعة أبو عبد الله المنظور (735-1335م) الذي تولى القضاء بتلمسان وكتابة السير والخطابات في مسجد الجامع فكانت له مكانة مميزة عند أبي تاشفين الأول²⁴.

ومع مجيء أبو حمو موسى الثاني (357 هـ - 1352م / 791 هـ - 1389م) الشاعر والأديب وله واسطة السلوك في سياسة الملوك حرص على حضور مجالس الفقه والدين ومشاهدة مناظرة الشعر والشعراء، فتميزت شخصيته بسمات أندلسية تجلت في سلوكه وطموحاته، تألق بصفة خاصة كشاعر مفوه تأثر ممتاز والأديب يحب الأدباء ويجيز الشعراء فكان عصره من أزهى عصور الدولة الزيانية ازدهرت تلمسان خلالها حضاريا وثقافيا، وبهذا فقد عمل سلاطين الزيانيين على تشجيع العلم بدفع رواتب الأساتذة وتقديم المنح للطلبة،

وكانوا يسلمون الإجازة لمن يستحقها ليحققوا التنافس في شتى العلوم فنصف المجزين بمنحها إلى ذوي الكفاءة والأهلية²⁵.

2- الرحلة في طلب العلم :

لم يكتفي طلاب تلمسان بالمعارف العلمية المحلية، فكانوا كغيرهم يرتحلون لإتمام تعليمهم إلى العواصم الكبرى ساء منها

- جعفر أبو عبد السلام التونسي: الذي قدم من الأغمات نزل ودرس بها "تلمسان"، فكان من بين تلاميذه عبد المؤمن بن علي الكرمي توفي 530 هـ.

- أبو محمد الدباغ: عبد العزيز إبراهيم اللخيمي توفي 602 هـ.

- عبد الرحمن التيجيني: أبو عبد الله الرحمن التيجيني من أهل إشبيلية نزل تلمسان، وأخذ عنه الكثيرون من طلبة العلم توفي سنة 610 هـ¹⁴.

ونجد أيضا من علماء تلمسان من ارتحل إلى بلاد أخرى لطلب العلم¹⁵ أو الاستقرار في المدن المجاورة وهذا ما يظهر في المدن المجاورة وهذا ما يظهر في هذه الفترة قد عرفت حركة نشيطة في المجال الفكري والعلمي، ومن بين علماءها من ولي قاضيا على مراكش مثل أبي عبد الله بن مروان محمد بن علي الهمذاني فقيه وهراني الأصل نشأ بتلمسان ابنه أبو عمران موسى الذي ولي قاضيا بقرطبة ومرسية ثم غرناطة توفي 921 هـ¹⁶، هؤلاء وغيرهم من العلماء من لم نذكرهم قد برعوا في الكثير من العلوم وقاموا إلى جانب التدريس في وظيفة القضاء فساهموا مساهمة فعالة في إشعاع الثقافي بتلمسان الموحدية والمرابطية.

وتجتمع هذه الأسباب وغيرها مما ذكرناها سابقا لتبين بروز تلمسان كمركز ثقافي في مرحلتها الأولى وتركيز الحياة الثقافية على العلوم الدينية خاصة الفقه والحديث، ثم نلها العلوم الإنسانية من لغة شعر ونثر.

ويتجلى الاهتمام بالجانب الديني في انتشار التصوف بتلمسان وناحتها خاصة بعد وفاة أبي مدين الحسيني الإشبيلي ونبوع الفكر الصوفي، غير أن الأوضاع سوف لن تبقى على حالها ثقافيا إذ تعرف ثغرا جزريا وانتشار العلوم المختلفة مع تشييد المراكز والمؤسسات التعليمية في عهد الدولة الزيانية على يد يغمراسن بن زيان العبد الوادي سنة (633 هـ - 1235م)¹⁷.

بالرغم من الحياة السياسية المضطربة التي عاشتها الدولة الزيانية، وخاصة عاصمتها تلمسان من فتن داخلية وحملات مرينية، فإنها لم تخلو من النشاط الفكري والعلمي التي تصافرت في بروزه جملة من العوامل الداخلية والخارجية لتجعل منها مراكز الإشعاع الثقافي ولعل من بين هذه العوامل:

أ-العوامل الداخلية:

1- تشجيع سلاطين بني زيان للعلم: تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول المشجعة للعلوم النقلية والعقلية¹⁸ وقد عرف ملوك بني عبد الواد بجهودهم المستمرة في نصرتهم للعلم ورعايتهم لفنون الآداب والعلوم هذه الميزة جعلتهم يشجعون الفقهاء والأدباء والعلماء ويستقبلوهم من مختلف الحواضر الإسلامية لاسيما الأندلس¹⁹. إذ يعتبر يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية أول من دشّن تشجيع الحركة الفكرية والتعليمية

مواقع الوقف على الجامع المدرسة بحيث يحتوي على سبعة عشر بستانا وجنانا في الضواحي العديدة بتلمسان، زيادة على الحمام يدعى حمام العالية والذي يحتوي على نكاكين. إلى آخره من الأملاك.³¹ إضافة إلى وقف الكتب التي تكون قليلة أو لا يستطيع الطلبة انتفاعها والتي تساعد الطلبة على البحث، وقد نسخ السلطان أبو زيد الثاني بيده نسخة من صحيح البخاري والمصحف الشريف، وكتاب الشفا للقاضي عباس وحبسها بالمكتبة التي أسسها لجامع الكبير بتلمسان، وكانت عينة من الوقف موجهة لطلبة فسخ لإطعامهم وكسوتهم، كما بلغ الوقف أهمية بالغة في بلاد المغرب عامة وفي تلمسان خاصة بحيث أنها المصدر الأساسي لتغطية نفقات المدارس من الرواتب والأساتذة وجاريات الطلبة، وبالتالي حافظ على بقاء المؤسسات التعليمية.

4- إحياء دور التعليم وبناء المدارس :

أ-مدرسة ولدي الامام: بنيت في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول، وسبب بنائها أن الأخوين ابني الإمام دخلا تلمسان في عهد هذا السلطان فأكرمهما وابنتى لهما هذه المدرسة التي سميت باسمهما، وكان ذلك حوالي سنة 710هـ.

ب-المدرسة التاشفينية: بناها عبد الرحمن أبو تاشفين (718هـ - 737هـ) بجانب الجامع الأعظم وعين بها مدرسين من كبار العلماء من أمثال أبي موسى المشدالي، وكانت هذه المدرسة تحفة فنية رائعة، وقد وصفها المقري بأنها من بدائع الدنيا، وللأسف أن يد الاستعمار الفرنسي قد أتت عليها فتم تهديمها دون مراعاة لما فيها من جوانب فنية وحضارية وذلك ليبنى مكانها دار البلدية، ثم نقلت بعض تحفها وزخارفها إلى متحف تلمسان، وإلى متحف كلوني في باريس.

ج-مدرسة أبي الحسن المريني بالعباد: بناها أبو الحسن المريني في منطقة تسمى العباد سنة 748هـ، وذلك أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط.

د-مدرسة أبي عنان المريني: أسسها أبو عنان أبي الحسن المريني سنة 754هـ، بجانب مسجد الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحلوي.

هـ-المدرسة اليعقوبية: أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني (760-791هـ) على ضريح والده يعقوب وعميه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، وتم تشييدها في شهر صفر سنة 765هـ وقد احتفل بها السلطان واعتنى بها وأكثر عليها الأوقاف ورتب فيها الجرايات، وكان الإمام أبو عبد الله الشريف واحدا من أكابر مدرسيها، ومن سوء الحظ أن هذه المدرسة قد انتشرت كغيرها من المدارس³².

لعربية كغرناطة فاس مراكش أو الشرقية كتونس، القاهرة ودمشق وحتى بغداد علاوة على الحرمين الشريفين التي كان الداعي إليهما أداء فريضة الحج وأدى ذلك إلى تضاعف الدبلوماسي بتبادل الرسائل الإخوانية والديوانية.

حيث ينتقل الدارسون التلمسانيون لطلب العلم والاستفادة منه ولقاء كبار الشيوخ والعلماء فيقول ابن خلدون: إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتجلون له من المذاهب والفضائل تارة عالما وتعلما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن الحصول الملكات غير المباشرة والتلقين اشد استحكما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ، يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخططة على المتعلم حتى لا يضر كثير منهم كثيرا منها أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تميز الإصلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجسد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق التحصيل وتنهض قواه الرسوخ واستحكام في المكان وتصحيح معارفه²⁶. ولهذا ركز ابن خلدون بان الرحلة في طلب العلم إنما تكون لاكتساب الفوائد وكمال العلم بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال. فكانت الرحلة إلى طلب العلم في الدولة الزيانية من المسائل المحمودة، ولم تنج عنها تبادل الآراء في مختلف العلوم العقلية والنقلية، وتميز هذا الاتصال في تداول الكتب والمعارف والتنافس على المجالس، والحلقات العلمية مع المساهمة فيما عندهم من علم ومن بين المؤلفات الشرقية

والأندلسية التي كانت تدرس لطلبة المدارس المغربية مختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع²⁷. ونتج عن ذلك تكوين كوكبة من الأساتذة والعلماء وتميزوا بغزارة التحصيل حتى أصبحوا حجة في العلوم النقلية والعقلية²⁸.

3- اهتمام بنو زيان بتشييد المؤسسات التعليمية :

أنت المؤسسات التعليمية على اختلاف أنواعها دورا بارزا أساسيا في تنشيط الحركة الفكرية بتلمسان، وأولها بني زيان أهمية كبرى، وحرصوا على توفير موارد من المال الذي كان يغطي بالأوقاف على اختلافها فمنها ذات الطابع الخاص كإيقاف الملكية العقارية أما الأوقاف ذات الطابع العام فكانت ثروتها توجه نحو المؤسسات كالمساجد والمدارس والزوايا، وكانت معظم ممتلكات الأوقاف تتواجد بالعاصمة الزيانية²⁹، ومما شجع هذه الحركة الوقفية اهتمام السلاطين بوقف ممتلكاتهم كما فعل الأمير الزياني ابن عامر إبراهيم (662 هـ - 1269م) بوقف كراء عشرين دكانا وعقارات لبناء مسجد أبي الحسن³⁰.

كما حدد الأملاك والعقارات بمدرسة العباد وينكر اللوح المثبت بإحدى دعوات جامع أو مدرسة أبي مدين شعيب بالعباء ما يلي: "... وحبس على الجامع المذكور والمدرسة المذكورة... ولقد حدد النص

ب-العوامل الخارجية:

1- توافد العلماء على الدولة الزيانية:

عرفت تلمسان هجرات عديدة، وتوافدا كبيرا للعلماء من المناطق مختلفة خاصة من فاس وتونس والأندلس هذه الأخيرة التي تمثل هجرة علمائها أثرا بالغا على المجتمع التلمساني، حيث اشتهروا بثقافتهم العالية وعلمهم الوافر الذي جعلهم يملؤون قصور تلمسان، ويعملون على تسيير شؤون الدولة الزيانية إذ كان كتاب الأندلس يمثلون جماعة متخصصة ينتقلون من خدمة الأمير إلى آخر حسب الظروف، ويحتلون وظائف في دواوين الإنشاء، أو في إدارة الأشغال وأحيانا يرتقون إلى مرتبة الوزارة³³.

فقد تولى محمد بن ملاح الوزارة والحجابه في عهد أبو حمو موسى الأول، كم أنهم يمتازون عن سواهم في العلوم فاستفاد أهل تلمسان بمعارفهم العلمية والأدبية، وأضافوا إلى تلك تعليم القرآن الكريم وتعليم الحديث الشريف والقاعد العامة لمختلف العلوم ودرسوا التعليم العالي بالمساجد والزوايا. هذا إلى جانب دور علماء الأندلس في مجالس المناظرة، والذين يعتمدون في أغلب الأحيان على النقل والرواية لا على الرأي والاجتهاد، إضافة إلى جلبهم الموسيقى الأندلسية إلى تلمسان³⁴.

ومن بين العلماء الوافدين إلى تلمسان من بلاد الأندلس ما يلي:

- أبو عبد الله محمد الملقب بلسان الدين الخطيب: الذي هاجر إلى تلمسان عام (773هـ - 1371م)، حيث كان مع سلطان المغرب، وأقام بها سنة كاملة، وغادر معه فيما بعد أن عبر عن تلمسان نثرا وشعرا.

- محمد أبي العيش: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي العيش من أصل تلمساني،

برز في الفقه والأصول العربية خرجت عائلته من اشبيلية واستوطنت تلمسان، ألف كتابا كبيرا في الأسماء الحسنى وآخر في تفسير القرآن ت (911هـ - 1505م).

- أبو عبد الله بن الأزرق: هو أبو عبد الله بن علي الشهير بابن الأزرق الغرناطي، ارتحل إلى تلمسان بعد السبعين وثمان مئة فهو الإمام العلامة الخطيب حجة الأعراف قاضي الجماعة بحضرة غرناطة³⁵.

كما توافد على دولة بني زيان عدد كبير من العلماء القادمين من المغرب الأدنى، خاصة من القرن 7-8هـ / 13م-15م بسبب كثرة اعتناء ملوك تلمسان بالعلم، ودور المؤسسات التعليمية في توطيد العلاقات بينها، ومن العلماء الوافدين على الدولة الزيانية من الدولة الحفصية ما يلي:

- أبو موسى المشداني البجائي: ولد عام (760هـ - 1271م) نشأ ببجاية وارتحل إلى مدينة الجزائر ثم إلى تلمسان حيث

كان يدرس فقه والحديث، والمنطق والفرائض وبقي بها إلى أن توفي عام (745هـ - 1344م).

- عبد الله سليمان بن قاسم المحمودي التونسي: اشتهر بالفقه والحديث، ارتحل إلى تلمسان للاستزادة من العلم من مشاهير شيوخها، وأجاز للعديد من العلم بها ثم عاد إلى تونس فتولى قاضي الأنكحة بها.

- أبو الفضل قاسم بن عيسى بن ناجي: اشتهر بالفقه والحديث أخذ من الكثير من الشيوخ تونسيين القيروان، وتولى القضاء ببجاية³⁶. أما عن العلماء الذين ارتحلوا من فاس إلى تلمسان فنذكر منهم النموذجين التاليين:

- إبراهيم بن محمد المصمودي: أصله من صنهاجة بالمغرب غرب مكناسة أخذ العلم من فاس عن العبدوسي، والأبلي وغيرهما، ثم نزل إلى تلمسان، ولازم فيها أبا عبد الله الشريف بالمدرسة اليعقوبية، وبعد وفاته أخذ عن سعيد العقباني بالمدرسة التاشفينية ثم انقطع للعبادة والتدريس توفي عام (804هـ - 1401م)، دفن بروضة آل زيان وقد سمي الضريح والجامع باسمه.

- أبو عبد الله محمد السلاوي: جاء تلمسان فارا من بني مزين، ولم يكن له حظ في العلم، فانكب على الروس، وأخذ بها عن عمران منشداني، عن لتدريس بالمدرسة التاشفينية في عهد أبي تاشفين الأول توفي عام 737هـ قتلته المرينيون عند احتلالهم لتلمسان.

نظرا للموقع الجغرافي تحتله الدولة الزيانية يتوسطها للمغرب الأوسط فقد لعبت دورا كبيرا في توطيد العلاقات بينها وبين الدول المجاورة، سواء الشرقية أو الغربية.

ولقد تميزت علاقاتها مع بلدان السودان ومصر خاصة بالموودة والأخوة، فكانت طريقا للحجاج الوافدين من بلاد المغرب انتهب هؤلاء الفرصة ليحطوا الرجال بها فترة قصيرة أو طويلة يأخذون بالعلم، والمعرفة من الأزهر ويتعرفون على الحضارة الإسلامية التي كانت مزدهرة بالقاهرة. وقد لعبت مصر دورا كبيرا في إثراء الحركة الثقافية. وكانت الوراثة المغاربية من بين أهم الأروقة المشهورة بالأزهر من حيث يتخرج منها العلماء الذين كانوا يرتحلون إلى المغرب، واخذ هؤلاء العلماء يتعاونون مع رفقاتهم، في حمل رسالة العلم.

الخاتمة:

لقد عرفت تلمسان بدورها الثقافي المؤثر في المغرب الأوسط بل دورا مماثلا في خدمة المعرفة والعلم في جنوب الصحراء الكبرى إلى جانب القيروان وفاس، فارتبطت بني زيان بعلاقات ودية مع سلاطين كاتم وبرتو وسنغاي والمالي، وكان

- 14- عبد الحميد حاجيات: تلمسان كمركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط، مرجع سابق ص 37-38.
- 15- المرجع نفسه ص 38.
- 16- أبي محمد عبد الواحد على المراكشي: المعجب في تخلص أخبار المغرب، المصدر السابق، ص 245-246.
- 17- مصطفى أبو ضيف عمر: القبائل العربية في عصر الموحدين وبنو مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 151.
- 18- عبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 6 دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان 1999 ص 226.
- 19- محمد بن عمرو الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 233-236.
- 20- الفرد بال: الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا (من الفتح حتى اليوم) ترجمة احمد بدوي، دار الغرب الإسلامي، لبنان الطبعة الثالثة 1987 ص 251.
- 21- عبد الحميد حاجيات: أبو حمو الزياتي حياته وآثاره، مرجع سابق ص 58.
- 22- يحيى بن خلدون أبو زكرياء: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مصدر سابق، ص 190.
- 23- د يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 86.
- 24- النياحي أبو الحسن عبد الله الملقبي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا تحقيق ليفي بروفنسال دار الكتاب العربي، القاهرة، 1948، ص 134.
- 25- أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من المائة ببجاية الجزائر، 1910، ص 150.
- 26- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 437.
- 27- محمد المقرري التلمساني: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، مصدر سابق، ص 134.
- 28- ابن مريم أبو عبد الله بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء بتلمسان، مصدر سابق، ص 66.
- 29- أبو القاسم سعد الله من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر 16م - 20م، مرجع سابق ج 2، ص 24.
- 30- محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، مرجع سابق، ص 111.
- 31- عبد العزيز الفيلاحي: تلمسان في العهد الزياني، ج 2، ص 449.
- 32- مجلة الأصاله العدد 26 جويلية، أوت 1395 هـ - 1975م، ص 138.
- 33- عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب المركز الثقافي العربي، الدار العربي، ط 2000، ص 214-215، والحاج رمضان الشاوش باقة السوسان بالتعريف بحاضرة تلمسان، المرجع السابق ص 403.
- 34- محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، مرجع سابق، ص 403.
- 35- محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، مرجع سابق، ص 403.
- 36- عبد الحميد حاجيات: أبو حمو الزياتي حياته وآثاره، المرجع السابق، ص 05.

طلاب هذه البلاد يتوافدون إلى تلمسان لتلقي العلم في مدارسها ومعاهدها الدينية التي حرص سلاطين بني زيان على رعايتها واختيار الأساتذة العاملين بها، كما أن ركب الحجيج بلاد السودان الغربي كان يجد بتلمسان عوناً عند المرور، وفضل البعض من أبنائها الإقامة النهائية وعدم العودة من أجل الدراسة في مساجدها كالجامع الأعظم الذي أقامه يغمراسن أو لتلقي العلوم الطبية على أيدي أساتذتها، فأصبحت محطة وصول طلاب السودان، فقد ارتحل العديد من العلماء إلى هذه المنطقة وكان لهم باع طويل في مختلف العلوم والمعارف.

هوامش البحث:

- 1- علي الصلابي: صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي الجومر الثمين في معرفة دولة المرابطين، ج 4، مكتبة الإمام بمنصورة الجامع الأزهر، ص 312.
- 2- أبو القاسم الحنفاوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، تقديم القاسم الحسيني، مؤسسة الرسالة المكتبة موقع للنشر، الجزائر 1991، ص 258.
- 3- محمد مرتاض: من أعلام تلمسان، مقاربة تاريخية فنية، دار الغرب للنشر والتوزيع 2003 ص 28.
- 4- محمد بن محمد: مركز تلمسان الثقافي بين أجادير الادريسية، وتاجرات المرابطية العدد 3-4 جويلية مؤرخ، مجلة دورية يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين 2005، ص 110.
- 5- عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر، 1971، ص 65.
- 6- عبد الحميد حاجيات: تلمسان كمركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط، مجلة الدراسات التاريخية العدد العاشر يصدرها معهد التاريخ، بجامعة الجزائر السنة، 1997 ص 183.
- 7- عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب عهد عبد المؤمن بن علي مرجع سابق، ص 65.
- 8- حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، الجزء الثالث، القاهرة 1968، ص 437.
- 9- أبي محمد عبد الواحد على المراكشي: المعجب في تخلص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، صيدا بيروت لبنان، الطبعة الأولى (1426-2006)، ص 03.
- 10- ابن تومرت: أعز ما يطلب، تقديم وتصحيح عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب الرغاية، الجزائر 1985، ص 03.
- 11- اليبدي أبو بكر علي الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الرحمن حاجيات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 85.
- 12- عبد الحميد حاجيات: تلمسان كمركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط، مرجع سابق ص 346.
- 13- البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك نشره البارون دي سيلان، باريس 1965 ص 76-77.